

## الشعر والتشيع في مصر بعد الفاطميين

يذهب صاحب الطالع السعيد إلى أن بلادًا بأكملها في مصر كانت تدين بالتشيع حتى القرن الثامن من قرون الهجرة، ففي حديثه عن إدفو قال: كان التشيع بها فاشيا، وأهلها طائفتان الإسماعيلية والإمامية، ثم ضعفت حتى لا يكاد يتميز به إلا أشخاص قليلة<sup>(١)</sup>. ويقول عن أسفون: بلدة معروفة بالتشيع البشع لكنه خفَّ بها وقلَّ<sup>(٢)</sup>...

وعن إسنا قال: وكان التشيع بها فاشيا والرفض بها ماشيا فجف حتى خفَّ<sup>(٣)</sup>... وفي حديثه عن بهاء الدين القفطي هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل حاكم إسنا والدرس بمدريستها المتوفى سنة ٦٩٧ هـ قال: «إنه فتح إسنا فإنه كان بها التشيع، فما زال يجتهد في إخماده وإقامة الأدلة على بطلانه وصنَّف في ذلك كتابا سماه... «النصائح المفترضة في فضائح الرفضة» وهموا بقتله فحماه الله منهم<sup>(٤)</sup>...

وفي حديثه عن ابن دقيق السعيد المتوفى سنة ٦٦٧ هـ قال: إنني إلى الصعيد في طالع لأهله سعيد، فتمت عليهم بركاته وعمتهم علومه ودعوته وكان مذهب الشيعة فاشيا في ذلك الإقليم، فأجرى مذهب السنة على أسلوب حكيم وزال الرفض وانجاب وثبت الحق حتى لم يبق فيه شك ولا ارتياب...<sup>(٥)</sup>

وحفظ أسماء عدد من العلماء والأدباء من رجال القرنين السابع والثامن من قرون الهجرة كانوا يدينون بالتشيع نذكر منهم عبد القادر ابن مهذب الإدفوي - ابن عم صاحب الطالع السعيد - وقيل إنه رحل إلى قوص للاشتغال بالفقه فحفظ أكثر التنبيه، وكان إسماعيلي المذهب، مشغلا بكتاب الدعائم تصنيف القاضي النعمان بن محمد متفقه فيها...

وكان فيلسوفا يقرأ الفلسفة، ويحفظ من كتاب زجر النفس، وكتاب أثولوجيا وكتاب التفاحة المنسوب إلى أرسطو كثيرا، وتوفى سنة ٧٢٥ هـ<sup>(٦)</sup>.

(١) الإدفوي: الطالع السعيد ص ١٦.

(٢) نفسه ص ١٧.

(٣) نفسه ص ١٧.

(٤) نفسه ص ٣٩٧.

(٥) نفسه ص ٢٢٩.

(٦) نفسه ص ١٧٦.

وكان عبد الملك بن الأعز بن عمران الذى أخذ النحو والأدب عن الشمس الرومى متهما بالتشيع مشهورا به وتوفى سنة ٧٠٧ هـ<sup>(١)</sup>.. وأن الشاعر المحدث محمد بن محمد بن عيسى الشيبانى النصيبى كان متشيعا<sup>(٢)</sup>.. أما القاضى جلال الدين الحسن بن منصور المعروف بابن شواق المتوفى سنة ٧٠٦ هـ فقد كان يتشيع ويدرس مذهب الشيعة ثم قبض عليه ورحل إلى القاهرة بعد أن صودرت أمواله<sup>(٣)</sup>.. ويذكر ابن حجر أن على بن المظفر بن إبراهيم الوادعى الكندى المتوفى سنة ٧١٦ هـ وكان كاتباً فى ديوان الإنشاء كان يشيع<sup>(٤)</sup>.. ويطول بنا البحث لو حصرنا فى هذا البحث القصير من كان يعرف بالتشيع من علماء وأدباء مصر فى عصر الأيوبيين.. وهذا يدل على أن العقيدة الشيعية لم تقتلع من نفوس المصريين بل ظلت عقيدة بعض المصريين بالرغم مما أصاب الشيعة فى مصر فى ذلك العصر من ألوان الاضطهاد وبالرغم مما قام به علماء جمهور أهل السنة والجماعة من جهود متواصلة فى تعليم المصريين علومهم وآراءهم بفضل تلك المدارس المذهبية السنية التى انتشرت فى مصر انتشارا عظيما، فكانت هذه المدارس هى السبب الأول فى تحول الشيعة فى مصر إلى رأى الجماعة والسنة...

### شعر المتشيعين

كان بين بقايا الشيعة فى مصر عدد كبير من الشعراء حفظت بعض قصائدهم التى يظهر فيها أثر العقيدة الشيعية التى دانوا بها.. نذكر من هؤلاء الشعراء أبا العباس شهاب الدين بن عبد الملك العزازى [٦٣٤ : ٧١٠ هـ].. التاجر بقميسارية جهاركنس بالقاهرة<sup>(٥)</sup>.. كان أديبا بارعا ولا سيما فى نظم الموشحات وكان يتشيع ويظهر تشيعه فى شعره ومن ذلك قوله :

عليه ودانى الكمد القصى  
وأصبح فيه ذا شجن شجى  
ولا عادت بناجحة مطى

إذا أنا لم أبت دامى الأماقى  
وأمسى فيه ذا وسن ضنين  
فلا صارت بقافية ركابى

(١) نفس المصدر ص ١٨١.

(٢) نفس المصدر ص ٣٥٤.

(٣) الإدقوى: الطالع السعيد ص ١٧٦.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٣٠.

(٥) أبو المحاسن: المنهل الصافى ج ١ ص ٣٤٠ طبعة دار الكتب المصرية..

ولا أضمرت حب بنى عليّ  
 ونالوا رتبة الشرف العليّ  
 وبوم الفخر أقمار الندى  
 فتنت لطايم المسك الذكيّ  
 ووذو النسب الصحيح من النبيّ  
 خلافا للفريق الجاهليّ  
 وفنر كل جبار عتيّ  
 أمانى هامة البطل الكميّ  
 وغامضه بلا حصر وعيّ  
 كأصلهم وفرعهم الذكيّ  
 كقدرهم ومجدهم العليّ  
 تغطى آية الصبح الجليّ  
 وحلير مورد العيش الهنيّ  
 وقد جار العدو على الوليّ  
 لفاطمة البتول ولا الوصيّ  
 تحط خطية الجاني المسيّ  
 ويسعد كل محترم شقيّ  
 عليكم فى الغدو وفى العشيّ

وإلا لا اعتقدت ولا عليّ  
 أناس أدركوا أمد المعالى  
 هم سحب الندى يوم العطايا  
 إذا كررت ذكرهم كأنى  
 أبوهم ذو الجلالة من قريش  
 ناصر دينه سرا وجهرا  
 وقاهر كل كفّار عنيد  
 وضارب يوم صفين وبدر  
 وكاشف كل مشكلة ولبس  
 اللئاعى عليهم يوم فخر  
 اللئاعى بهم نحو المنايا  
 أتقدر ظلمة الليل الدياجى  
 ترى بعد الحسين يسوغ ماءً  
 وأية عيشة تحلو وتصفو  
 لقد ظلموا وما حازوا حقوقا  
 بكم يا آل يس وطه  
 ويحظى بالشفاعة كل عاص  
 سلام الله والرضوان منه

فهذه المعانى فى هذه المقطوعة لا يمكن أن تصدر إلا من شاعر يعتنق التشيع له دينا  
 فولايته لآل البيت وإسباغ الفضائل عليهم وشفاعته بهم وحزنه على الحسين بن على وعلى  
 من قُتل من العلويين. كل هذه معان شيعية خالصة لا ينشدها إلا شاعى شيعى.. ولكن  
 العزازى فى هذه القصيدة وفى غيرها من قصائده الشيعية فى ديوانه لم يلم بالمعانى الفلسفية  
 الشيعية التى كنا نراها عند شعراء الفاطميين بل اكتفى بإيراد المعانى الشيعية العامة التى  
 يقول بها كل فرق الشيعية غير المتطرفة على اختلاف مذاهبهم ولذلك صار من الصعب  
 علينا أن نتعرف الفرقة الشيعية التى كان ينتمى إليها العزازى.. وكذلك نقول عن الشاعر  
 ابن شَوَّاق الإسنائى جلال الدين الحسن بن منصور الذى وصفه الإدقوى بقوله:

«رأيته وصحبته مدة وكان رئيس الذات والصفات حسن الأخلاق كريما في نهاية الكرم حليما له في الحلم علم...» وقد ذكرنا كيف صودرت أمواله لتشييعه ، وأنه رحل إلى القاهرة فاجتمع بالصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين ، فأعجب هذا به وعرض عليه العمل في ديوان الإنشاء<sup>(١)</sup> فرفض..

كان هذا الرجل يتشيع وكان تشييعه على النحو الذى كان عليه شيعة مصر قبل عصر الفاطميين . أى حب الصحابة وتعظيمهم والاعتراف بفضلهم.. إلا أنه كان يقدم على بن أبى طالب عليهم<sup>(٢)</sup> ومع ذلك كان هذا المتشيع شاعرا ، وقد وصلتنا قصيدة له يمدح بها أهل النبوت ويصفهم بصفات هى أقرب ما تكون إلى الصفات التى يذكرها علماء الشيعة الإسماعيلية عن الأئمة فهو يقول:

وأنا بين عبوق واصطباح  
أسمر فاق على سمر الرماح  
رفع المرضى لتعليل الصحاح  
وابتدا بالصد جدًا فى مزاج  
شاع فى الآفاق بالقول الصراح  
تجبروا قلب أسير من جراح  
ماله نحو حماكم من براح  
فعلى ماذا سمعتم قول لاح  
وهو فى رسم هواكم غير ماح  
ورأيتم بعده عين الصلاح  
معدن الإحسان طرًا وللسماح  
فهو فى أعناقهم مثل الوشاح  
عجزت عن حمله أهل الصلاح  
وهم أسد الشرى عند الكفاح  
ضوءها يربو على ضوء الصباح  
فجميع الرجس عنهم فى انتزاح

كيف لا يحلو غرامى وافتضاحى  
مع رشيق القدم معسول اللما  
جوهرى الثغر ينحو عجباً  
نصب المهجر على تمييزه  
فلهذا صار أمرى خبيرا  
يا أهيل الحى من نجد عسى  
لم خفضتم حال صب جازم  
ليس يصغى قول واش سمعه  
ومحوتم اسمه من وصلكم  
لئن أفرطتموا فى هجره  
فهو راج لأولى آل العبا  
لدوا أمرا عظيمًا شأنه  
مناء الله فى السر الذى  
هم مصابيح الدجا عند السرى  
تشرق الأنوار فى ساحاتهم  
أهل بيت الله إذ طهروا

(١) ديوان العزازى: نسخة خطيه بدار الكتب المصرية قم ٤٧٩ أدب...

(٢) الطالع السعيد ص ١٠٨ وما بعدها.

رجعت منا صدور في انشراح  
 من قريضي وثنائي وامتداح  
 في مقام وغدو ورواح  
 فارس الفرسان في يوم الكفاح  
 ما على من قال حقا من جناح  
 لرجحتم جمعهم كل رجاح  
 بكم الخلد مع الحور الصباح  
 كجمان الدر في جيد الرдах  
 ينعش الأرواح مع مر الرياح  
 غشيت شمس الضحى كل الضواحي  
 ألف النواح بتكرار النواح<sup>(١)</sup>

آل طه لو شرحنا فضلهم  
 أنتم أعلى وأغلى قيمة  
 جدكم أشرف من داس الحصا  
 وأبوكم بعده خير الوري  
 وارث الهادي النبي المصطفى  
 لو يقاس الناس جمعا بكم  
 يا بنى الزهراء يرجو حسن  
 قد أتاكم بمديح نظمه  
 فاسمعوا يا خير آل ذكركم  
 وعليكم صلوات الله ما  
 وسرى ركب وغنى طائسر

فالشاعر في هذه القصيدة ألم ببعض عقائد الشيعة فالأئمة قد قلدوا أمرا عظيما شأنه وهي مرتبة الإمامة وأن الأئمة أمناء الله في السر حيث التعاليم الباطنية التي أوتمنوا عليها والتي عجز عنها غيرهم وضمن في شعره الآية القرآنية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾<sup>(٢)</sup>... وهي الآية التي ذهب الشيعة على أنها أنزلت في أهل البيت من نسل فاطمة بنت الرسول، ثم ذكر أن عليا وصى النبي ووريثه وهي العقيدة التي يتميز بها الشيعة، بل هي أساس التشيع فهذه كلها معتقدات شيعية بها بعض التأثير بالمعتقدات الإسماعيلية مما يدل على أن الشاعر قرأ كثيرا عن الشيعة وعقائدهم، ودان بهذه العقائد وتوفي هذا الشاعر سنة ٧٠٦ هـ.

والشاعر الفقيه الشافعي محمد بن علي بن منجى المتوفى سنة ٦٧٣ هـ لم يُعرف عنه أنه تشيع، بل اتجه في أواخر أيامه إلى التصوف وبنى بإدفو رباطا ووقف عليه وقفا<sup>(٣)</sup>.. كان متأثرا بأراء الشيعة، ولا سيما في عقيدتهم أن بولاية أهل البيت ينال العفو في الآخرة ففي قصيدته التي أولها:

للحمى إن شئت ما أن تسعداها

حاديها خلياها وسراها

- (١) الطالع السعيد: ص ١١٠ - ١١١.  
 (٢) سورة الأحزاب: آية ٣٣.  
 (٣) الطالع السعيد: ص ٣١٠.

ختمها بقوله :

ولئن جرتم عليه فى الهوى      وعدلتم نحو عداها  
فهو يرجو العفو يوم العرض عن      ما جناه بولاية آل طه<sup>(١)</sup>

ولم تصلنا من أشعار هذا الفقيه الصوفى شيئا فى التشيع سوى هذا البيت الأخير، وإنما أوردناه لندلل على أن أثر الشيعة كان قويا فى نفوس بعض المصريين، وقد ذكرنا أنه فى سنة ٦٩٧ هـ ظهرت حركة داوود بن سليمان «ويقال بن شعبان» بن العاضد التى دعا فيها لنفسه وأن الناس اجتمعوا حوله ومدحه الشعراء بمقطوعات تظهر فيها أثر عقائد الفاطميين.. من ذلك قول الشاعر ابراهيم بن محمد بن على بن نوفل الإدقوى المتوفى سنة ٧٣٥ هـ فى مدح داوود هذا:

ظهر النور عند رفع الحجاب      فاستنار الوجود من كل باب  
وأنا البشير يخبر عنهم      ناطقا عنهم بفصل الخطاب<sup>(٢)</sup>

فالشاعر فى هذين البيتين مدح داود بهذه الصفات التى أسبغها شعراء العصر الفاطمى على الأئمة متخذًا المصطلحات الفاطمية الخالصة.. فظهور النور عند رفع الحجاب هو ظهور الإمام بعد استتاره.. وفى البيت الثانى يشير إلى أن داعية الإمام الذى عبر عنه بالبشير جاءهم بفصل الخطاب، وقد رأينا أن وظيفة الحجة فى الدعوة الإسماعيلية هى فصل الخطاب<sup>(٣)</sup>. فالشاعر كان يتحدث إذن كما كان يتحدث شعراء الفاطميين بالرغم من مرور قرن ونصف تقريبا على زوال الدولة الفاطمية من مصر وعندما انتشرت دعوة داود هذا فى بلدة أسفون أنشد الشاعر الماجن الهجاء قطنبة الأسفونى الحسين بن محمد بن هبة الله مقطوعة شعبية فى هجاء هذه الدعوة وهجاء دعائها فقال:

حديث جرى يا مالك الرق واشتهر      بأسفون مأوى كل من ضل أو كفر  
لهم منهم داع كتييس معمم      وحسبك من تيس تولى على بقر  
ومن نحسهم لا أكثر الله منهم      يسبوا أبا بكر ولم يشتهوا عمر

(١) نفس المصدر: ص ٣١٣.

(٢) نفس المصدر ص ٣١.

(٣) راجع ما كتبناه عن ذلك فى كتاب أدب مصر الفاطمية: ص ٢١ وكتاب راحة العقل للكرمانى: المشرع السادس من السور الرابع نشر الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمى ص ١٣٦ وما بعدها.

فخذ مالهم لا تختشى من مالهم فإن مآل الكافرين إلى سقر<sup>(١)</sup>  
 فمن هذه المقطوعة الشعبية التي أنشدتها قطنبة نستطيع أن نعرف أن الدعوة انتشرت  
 بقوة في بلد أسفون وكان لها دعاة يأخذون العهود والمواثيق وأنهم كانوا يسبون الصحابة  
 على نحو ما كان يفعل الفاطميون ويخيل إلى أن داوود بن سليمان هذا ما هو إلا دعي،  
 وأنه أحد دعاة الإسماعيلية النزارية (الإسماعيلية الشرقية) فإن من عقائد هذه الدعوة أن  
 يتحمل الإمام فرائض الدين عن المستجيبين وبذلك دعا داوود هذا<sup>(٢)</sup> ولذلك لم تجد الدعوة  
 قبولا عند أكثر المسلمين. وهجاه الشاعر علاء الدين الأسفوني على بن أحمد بن الحسين  
 المتوفى سنة ٧٣١ هـ فقال:

ارجع ستلقى بعدها أهوالا      لا عشت تبلغ عندنا آمالا  
 يا من تجمع فيه كل نقيصة      فلاضربن بسيرك الأمثالا  
 وزعمت أنك للتكلف حامل      وكذا الحمار يحمل الأثقالا<sup>(٣)</sup>

فلا غرابة إذن أن نرى هذه الدعوة التي هي أقرب إلى دعوة القرامطة القديمة قد فشلت  
 في مصر سريعا وأن تنفر من داوود ومن الذين استجابوا له قلوب سواد المصريين، ولذلك  
 لم نعد نسمع عن محاولات أخرى في مصر لإعادة الدعوة الفاطمية بعد محاولة داوود هذا.  
 ومن الطرائف التي حدثت في النزاع بين أهل السنة والشيعة في هذا العصر ما سجله  
 الشعر فيما كان يحدث في عاشوراء، في هذا اليوم من كل عام كان الشيعة يقيمون مآتم  
 الحسين ابن علي جرياً على السُّنة التي كان يتبعها الشيعة في جميع البقاع الإسلامية  
 وتقليدا لما كان متبعاً في مصر الفاطمية.. وكان الشعراء ينشدون أشعارهم في هذه المناسبة  
 مثل ما أنشده العزازي في قصيدته التي ذكرناها من قبل، ومثل قول الشاعر شهاب الدين  
 أبي العباس أحمد بن صالح وقد وقع مطر غزير في ذلك اليوم:

يوم عاشوراء جادت بالحيا      سحب تهطل بالدمع الهمول  
 عجباً حتى السموات بكث      رزء مولاي الحسين بن البتول<sup>(٤)</sup>

(١) الطالع السعيد ص ١١٧.

(٢) نفس المصدر ص ١٩٧.

(٣) نفسه ص ١٩٧.

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات الجزء الثاني من المجلد الثالث لوح: ٣٥٩ نسخة فوتوغرافية

بدار الكتب المصرية.

ولكن أهل السنة أرادوا أن يكيدوا للشيعية فكانوا يخرجون في هذا اليوم وقد كُحلت أعينهم وحُضبت أيديهم وفي ذلك يقول الشاعر المصري أبو الحسين الجزار:

وبعود عاشور يذكرنى  
يا ليت عينا فيه قد كحلت  
وزء الحسين فليت لم يعد  
لشماتة لم تخل من رمد  
ويدا به لمسرة خضبت  
مقطوعة من زندها بيدي  
أما وقد قتل الحسين به  
فأبو الحسين أحق بالكمد<sup>(١)</sup>

وأبو الحسين الجزار نفسه هو الذى داعب الشريف شهاب الدين ناظر الأهراء فكتب إلى الشريف ليلة عاشوراء عندما أحرَّ عنه ما كان من جارية:

قل لشهاب الدين ذى الفضل الندى  
أقسم بالفرد العلى الصمد  
والسيد بن السيد بن السيد  
إن لم يبادر لِنَجَازِ موعدى  
لأحضرن للهنا فى غد  
مكحل العينين مخضوب اليد<sup>(٢)</sup>

فالشاعر بمداعبته هذه أعطانا صورة لما كان يجرى فى ذلك العصر بين المتعصبين من أصحاب المذهبين.. المذهب السننى الذين كانوا يخرجون ليلة عاشوراء للهنا، والمذهب الشيعى الذين كانوا يخرجون للعزاء. ويخيل إلى أن عادة المصريين الآن ولا سيما فى الأرياف بصنع أطباق الحلوى المعروفة باسم عاشوراء هى أثر من آثار هذا النزاع بين المذهبين فى عصر الأيوبيين والمماليك.

### أثر العقائد الفاطمية فى شعر أهل السنة

وإذا تركنا هؤلاء الشيعة الذين أظهروا تشيعهم فى أشعارهم، وصوروا لنا لونا من ألوان الفن المتأثر بهذا المذهب الدينى، فإننا نواجه ناحية هامة عند شعراء هذا العصر الذى نتحدث عنه، تلك الناحية هى تأثر الشعراء بالآراء والصور التى تركها شعراء المدح فى عصر الفاطميين فنحن نعلم أن الفاطميين جعلوا للأئمة صفات خاصة أخذت من صميم عقيدتهم ومذهبهم<sup>(٣)</sup>. واستخدم جميع الشعراء الذين اتصلوا بالأئمة سبيل المدح بذكر هذه الصفات<sup>(٤)</sup>، واستمر هذا الضرب من المدح طوال عصر الفاطميين فى مصر وبالرغم من أن الدولة الفاطمية دالت

(١) ابن شاکر: فوات الوفیات ج ١ ص ١٤٨.

(٢) المقرئى الخطط ج ٢ ص ٣١٥.

(٣) راجع ما كتبناه عن ذلك فى مقدمة كتاب المؤید فى الدين داعى الدعاء «نشر دار الکاتب المصرى».

(٤) فى أدب مصر الفاطمية ص ١٤١ وما بعدها.

على يد الأيوبيين وأن الدعوة الفاطمية اضمحل أمرها فلم يعد الدعاة يقومون بنشاطهم فإن الشعراء استمروا في مديحهم في نفس التيار الذي رأيناه عند الفاطميين، بل خلعوا على سلاطين الأيوبيين نفس الصفات التي خلعها شعراء الفاطميين على أئمتهم بل غلا بعضهم في المدح فنسب إلى السلاطين والخلفاء العباسيين مالم ينسبه شعراء الفاطميين إلى أئمتهم، فابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ مدح صلاح الدين بقوله:

أعدت إلى مصر سياسة يوسف وأحييت فيها الدين بعد مماته  
 وأحييت إلى أن تملك الأرض كلها  
 وجدت فيها من سميك موسما فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما  
 ودمت إلى أن يرجع الكافر مسلما<sup>(١)</sup>

فإذا كنا نقبل أن تكون المقارنة بين صلاح الدين ونبي الله يوسف لتشابههما في الاسم فإننا لا نقبل أن يكون صلاح الدين هو «ابن يعقوب» أو هو عيسى بن مريم لأنه أحيا الدين بعد مماته، إلا إذا كنا نتمذهب بالعقيدة الفاطمية التي تؤول الآيات القرآنية التي وردت في المسيح بأن إحياء الموتى هو نشر الدين وإحياء النفوس حياة صحيحة بالعبادة العلمية<sup>(٢)</sup> أو نقول كما قال الفاطميون بالدور وانتقال النبوة والأئمة بالتسلسل والتعاقب، وأن الخلف يرث دور السلف تماما ويحدث في أيامه ما حدث في أيام من سبقه فإذا بمحمد هو عيسى وهو موسى وهو نوح.... إلخ<sup>(٣)</sup>.

فقول ابن سناء الملك «فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما» هو أثر من آثار العقائد الفاطمية.

وفي قصيدة أخرى مدح هذا الشاعر صلاح الدين بقوله:

نُصرت بأفلاك السماء فشهبها خميس به يردى الخميس العرمرما  
 رقيت إلى أن لم تجد لك مرتقى وأقدمت حتى لم تجد متقدما  
 فما يبرم المقدار ما كنت ناقضا ولا ينقض المقدار ما كنت مبرما<sup>(٤)</sup>

ففي البيت الأول يتحدث عن أفلاك السماء التي نصرت السلطان وأفلاك السماء في التأويل الفاطمي يعنى الملائكة وهي العقول في الاصطلاحات الفلسفية والإسماعيلية أيضا<sup>(٥)</sup>

(١) ديوان ابن سناء الملك (مخطوط رقم ٢٣٣٣٣١ بمكتبة جامعة القاهرة).

(٢) المجالس المؤيدية ج ١ ص ١٤٧ (نسخة خطية بمكتبتى).

(٣) راجع ديوان المؤيد فى الدين ص ١٣٥ وما بعدها.

(٤) ديوان ابن سناء الملك.

(٥) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢١٧.

وفى البيت الثانى دفع الشاعر شدة المبالغة والغلو فى المديح إلى أن جعل صلاح الدين فى مرتبة ليس فوقها مرتبة، وهذا المعنى كثير جدا فى شعر العصر الفاطمى لأن الإمام مَثَلٌ للمبدع الول الذى ليست فوقه مرتبة<sup>(١)</sup> والبيت الثالث هو نفس معنى بيت ابن هانئ الأندلسى فى مدح المعز لدين الله الفاطمى:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار      فاحكم فأنت الواحد القهار

ثم اقرأ لابن سناء الملك أيضا قوله فى مدح على الشهيد نور الدين زنكى:

مولى الأنام (على) هكذا نقلت      لنا الرواة حديثا غير مختلق<sup>(٢)</sup>  
 فالشاعر هنا نقل الحديث النبوى «من كنت مولاه فعلى مولاه» الذى قيل فى على ابن أبى طالب إلى على الشهيد نور الدين زنكى، وتبع سنة شعراء الفاطميين الذين مدحوا الأئمة أنهم موالى الأنام ومرة أخرى يمدح صلاح الدين بقوله:

قد ملكت البلاد شرقا وغربا      وحويت الأفاق سهلا وحزنا  
 واغتدى الوصف عن علاك حسيرا      أى لفظ يقال أو أى معنى  
 ورأينا ربنا قال: أطيعوه      سمعنا لربنا وأطعنا<sup>(٣)</sup>

والشعراء الفاطميون كانوا يضمنون فى أشعارهم الآية: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾<sup>(٤)</sup>، وقال الدعاء إن هذه الآية أنزلت فى على بن أبى طالب فأخذ ابن سناء الملك هذا المعنى وأودعه شعره ولم يجعلها فى الأئمة من أهل بيت على بن أبى طالب إنما جعلها فى صلاح الدين ولم يكتف ابن سناء الملك بأن يتأثر بهذه العقائد الفاطمية ويتبع تيار الشعر الفاطمى فى مدحه لصلاح الدين الأيوبى أو نور الدين زنكى، بل نراه فى مدائحه للقاضى الفاضل يأتى بالمعانى التى كانت تقال للأئمة الفاطميين ولها من عقائدهم سند، أما أن تقال للقاضى الفاضل فهذا هو الأثر القوى على شعر ابن سناء الملك، فنحن نعلم أن الفاطميين وصفوا الأئمة بأنهم رحمة للعالمين<sup>(٥)</sup> فجاء ابن سناء الملك وقال للقاضى الفاضل:

(١) نفس المرجع ج ١ ص ١٠٩.

(٢) ديوان ابن سناء الملك.

(٣) ديوان ابن سناء الملك.

(٤) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٥) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢٠٢.

عبد الرحيم على البرية رحمةً أمّنت بصحبته حلول عقابها<sup>(١)</sup>  
وقال الفاطميون إن قصر الإمام هو فى العبادة العلمية «التأويل الباطن» الكعبة وأن الحج  
الباطن هو زيارة الإمام<sup>(٢)</sup>. فقال ابن سناء الملك للقاضى الفاضل:

يا كعبة طاف الملوک بها بل قبلة حج الأنام لها<sup>(٣)</sup>  
وهكذا نستطيع بسهولة أن نتبع أثر العقائد الفاطمية فى شعر ابن سناء الملك وهو من  
شعراء الدولة الأيوبية ومن كبار رجالاتها...

وها هو الشاعر الدمشقى ابن الساعاتى الذى وفد على مصر واتخذها دار إقامته. نراه قد  
تأثر بما كان فى مصر والشام من عقائد الفاطميين، ونهَجَ نهج شعراء المدح فى العصر الفاطمى،  
فنراه يمدح الخليفة العباسى الناصر لدين الله بما كان يمدح به الأئمة فهو يقول مثلا:

فروع إلى العباس تنمى أصولها وما خير فرع أسلمته أصول  
هو النسب الزاكى أناف بفضلها «وصى» حوى سبق العلا ورسول  
ترى اليوم طلقا حين يذكر «جعفر» ويسمى إليه حمزة وعقيل  
له شرف البيت العتيق وزمزم وما ساقه حادٍ إليه عجول  
وفضل الذبيحين الذى ما لفضله نظير، وهل للنيرين عديل  
علاه على السبع الشداد محله ومجد قديم لا يرام أثيل  
ففى كل يوم للملائكة العلى طواف على أبياتكم ونزول<sup>(٤)</sup>

فهو يمدح الخليفة العباسى بأنه ينتسب إلى الرسول والوصى على بن أبى طالب  
وجعفر بن أبى طالب وعقيل بن أبى طالب وحمزة بن عبد المطلب، وهذا مدح شيعى  
خالص، لا يمدح به إلا الأئمة من نسل على بن أبى طالب، وفى البيت الرابع معنى  
من المعانى الفاطمية التى تؤول شعائر الحج على أنهم الأئمة وقد شرفهم الله تعالى  
بذلك<sup>(٥)</sup>، وفى البيت السادس يضمن عقيدة باطنية خالصة بأن جعل الخليفة العباسى

(١) ديوان ابن سناء الملك.

(٢) القاضى النعمان: تأويل دعائم الإسلام ج ٢ ورقة ٦١ «أ» نسخة فوتوغرافية بمكتبة جامعة القاهرة.

(٣) ديوان ابن سناء ملك.

(٤) ديوان ابن الساعاتى ج ١ ص ٥٣ «طبعة دمشق».

(٥) القاضى النعمان: تأويل دعائم الإسلام ج ٢ ورقة ٦١ «فوتوغرافية» وكتاب المجالس المستنصرية

ص ٧٥ - ٧٨ «نشر محمد كامل حسين».

فوق السبع الشداد أى فى منزلة المبدع الأول «العقل الأول أو القلم» وقد ذكرنا أن هذا المعنى لا يمدح به إلا إمام إسماعيلى على نحو ما أوردناه فى نظريتنا التى أطلقنا عليها «نظرية المثل والمثول» لأن الإمام فى العالم الجسمانى مثل العقل الأول الروحانى، ولكن ابن الساعاتى أتى بهذا المعنى غلوا منه ومبالغة وتأثرا بما كان فى العصر الفاطمى. وفى البيت الأخير جعل الملائكة يطوفون ببيوت العباسيين، وهو معنى لم ينشد إلا فى بلاط الخليفة الفاطمى، فإن الفاطميين أولوا الملائكة وطوافهم ببيت الإمام على الدعاة والحجج الذين يزورون الإمام ويتجهون إليه لأنه قبلة نفوسهم. وهكذا نرى شاعرا آخر من شعراء الأيوبيين يتأثر بالشعراء بالفاطميين.

أما الشاعر ابن النبيه المصرى المتوفى سنة ٦١٩ هـ فقد كان أجراً شعراء مصر فى الأخذ من عقائد الفاطميين، وكان أشدهم مبالغة فى مدحه للخليفة الناصر العباسى، حتى إن القدماء أنفسهم عابوا عليه هذه المبالغة واتهموه فى دينه.

ولابن النبيه عذره فقد وجد فى عصر كانت عقائد الفاطميين لاتزال ماثلة فى أذهان الناس، وكان شعر شعراء الفاطميين لا يزال يروى بين الناس، فسار ابن النبيه فى تيار هؤلاء الشعراء، وخيل له أنه يمدح إمام الفاطميين لا الإمام العباسى عدو الفاطميين، بالرغم من أن الإمام الناصر العباسى نفسه كان متشيعا.

فانظر إلى ابن النبيه فى إحدى قصائده فى مدح الخليفة الناصر يقول:

حجوا إلى تلك المنازل واسجدوا  
وتطهروا بترابها وتهجدوا  
بالوحي جبريل لها يتردد  
مازال كوكب هديها يتوقد  
نبأ يقر له الكفور الملحد  
فى ظهر آدم والملائك سجّد  
من زل عنه ففى الجحيم يقيد  
والحوض ممتنع الحمى لا يورد  
لام تمهد تارة وتشيد  
منه البراهين التى لا تجحد  
موسى فبالمعراج أنتم أزيد

بغداد مكّتنا وأحمد «أحمد»  
يا مذنبين، بها ضعوا أوزاركم  
فهنالك من جسد النبوة بضعة  
«باب النجاة» «مدينة العلم» التى  
ما بين صدرته وسدة دستانه  
هذا هو السر الذى بهر الورى  
هذا «الصراف المستقيم» حقيقة  
هذا الذى يسقى العطاش بكفه  
«القائم المهدي» أنت بقيت للإس  
بعدا «لمنتظر» سواه وقد بدت  
إن كان فوق الطور ناجى ربه

للغيب منكم مصدر أو مورد  
وإليكم وصى بذاك محمد  
سبط وبأس مكفهر أجمد  
ولمن يواليه النعيم السرمد  
غالوا فقالوا: أنت رب يعبد<sup>(١)</sup>

أو كان يوسف عبر الرؤيا، فكم  
الله أنزل وحيه لمحمد  
الدهر في يده فجور مرسل  
يا من لمبغضه الجحيم قرارة  
لولا التقية كنت أول معشر

هذا ما أنشده ابن النبيه في الخليفة العباسي، وأوضح كل الوضوح مدى غلو هذا الشاعر في مدحه، هذا الغلو الذي لا أكاد أجد له مثيلا بين شعراء الفاطميين أنفسهم على ما وصفوا به أئمتهم من صفات، وأسبغوا عليهم من نعوت، ولكن شعراء الفاطميين أتوا بهذه الصفات والنعوت من العقيدة الفاطمية نفسها، ومن التأويلات الباطنية التي تميز بها الفاطميون ولم يقرهم عليها فرقة من فرق المسلمين، أما ابن النبيه وهو شاعر سني في دولة أطاحت بالدولة الشيعية، وحاولت أن تمحو من البلاد العقيدة الشيعية وكان يمدح الخليفة العباسي، ثم يغلو هذا الغلو في المدح فهذا هو الشيء الذي لم تكن نتوقه في شعر المدح في عصر الأيوبيين، والذين لهم إلمام بالعقائد الفاطمية، يستطيعون في سهولة ويسر أن يدركوا تأثر هذا الشاعر بالفاطميين، فالشطر الأول من البيت الأول هو نفسه رأى الفاطميين في عقيدة الأدوار التي تحدثنها عنها من قبل، والحج في الشطر الثاني من البيت الأول وكل البيت الثاني هو نفسه رأى الفاطميين في الحج الباطني، وعجيب أن يذهب الشاعر إلى أن الخليفة العباسي الناصر بضعة من جسد الرسول، لأنه ليس من نسل الرسول، والحديث النبوي يقول «فاطمة بضعة مني» ولكن مبالغة الشاعر وغلوّه في المدح جعل الخليفة الناصر من أبناء فاطمة مثله في ذلك مثل أئمة الشيعة.

وكذلك قوله «مدينة العلم» التي جعلها النبي لنفسه دون سواه فقال «أنا مدينة العلم وعلى بابها» وشعراء الشيعة لم يذهبوا إلى أن عليا أو أحد أبنائه «مدينة العلم» ولكن هذا الشاعر السنّي أبى إلا أن يجعل الخليفة الناصر في مقام النبي نفسه.

أما قوله «باب النجاة» فهو من أقوال شعراء الفاطميين وكذلك قوله بعد ذلك إن الناصر هو «الصراف المستقيم» فهذا تأويل باطني خالص لا يقول به إلا شاعر إسماعيلي في مدح إمام إسماعيلي<sup>(٢)</sup> أما في قوله:

(١) ديوان ابن النبيه ص ٣ «طبع المطبعة العلمية بمصر سنة ١٣١٣ هـ».

(٢) ديوان المؤيد في الدين ص ٨٧ والمجالس المؤيدية ج ١ ص ١٤٧.

هذا هو السر الذى بهر الورى... البيت، فهو نفس ما قاله الفاطميون عن مرتبة الاستيداع (النبوة)، ومرتبة الاستقرار (الإمامة) وتنقلهما منذ خلق آدم هذا الدور<sup>(١)</sup>. وهى نفس النظرية التى اعتنقها الصوفية فى هذا العصر وهى نظرية «النور المسمى» ويظهر تأثر ابن النبيه بالمصطلحات والعقائد الفاطمية تأثرا واضحا فى وصفه للخليفة العباسى بأنه «القائم المهدي» فقوله هذا أخذ أخذًا عن أقوال الفاطميين وهو اصطلاح من مصطلحاتهم الخاصة الذى تميزوا به عن الفرق الأخرى فى وصف «المهدي المنتظر» الذى هو عند الفاطميين آخر دور آدم الحالى «وخاتم السبع المثاني» وهو عند الفاطميين الناطق السابع وآخر النطقاء، فإذا كان الفاطميون قد انحرفوا عن الدين القويم بأن جعلوا نبيا بعد محمد صلى الله عليه وسلم فإن أسفنا أشد حين نجد شاعرا يتمذهب بمذهب أهل السنة والجماعة يصف خليفة عباسيا بهذه الصفة الفاطمية، وإذا كان أهل السنة يرون أن النبى صلى الله عليه وسلم قبض ولم يوص لأحد بعده، خلافا لقول الشيعة الذين ذهبوا إلى أن النبى أوصى لعلى يوم «غدیر خم» فإن الشاعر هنا جعل وصية محمد للعباسيين وهو قول لم نسمع به إلا من شعراء مصر فى عصر الأيوبيين.

ومن الصفات التى خلعتها الفاطميون على على بن أبى طالب أنه «قسيم الجنة والنار» أى أنه يقسم الناس بين الجنة والنار، فمبغضه فى النار ووليه فى الجنة. وفى ذلك قال المؤيد فى الدين يمدح الإمام المستنصر الفاطمى:

بمولانا الإمام أبى تميم      هديت إلى الصراط المستقيم  
قسيم النار مولانا معد      وجنات العلى وابن القسيم

فجاء ابن النبيه وجعل هذه الصفة للعباسيين، ويختم ابن النبيه هذه القصيدة بقوله لولا تقاه لبلغ به غلوه إلى تأليه الخليفة العباسى، بينما لم يذهب إلى تأليه الأئمة الفاطميين سوى الغلاة الذين طردوا من حظيرة الدعوة الفاطمية ومن هؤلاء دعاة الحاكم، ولم يذهب شاعر من شعراء الفاطميين إلى القول بهذه الدعوة فنرى المؤيد فى الدين مثلا يقول لإمامه:

لست دون المسيح سماه ربا      أهل شرك ولا نسمة ربا

ومثل ذلك قوله فى قصيدة أخرى:

نظم الله فيك فضل أناس      كان فيهم مقسما منثورا

(١) ديوان المؤيد ص ٨٠ وما بعدها.

أهل بيت قد أذهب الله عنهم  
أنت يا ابن النبي خابت صلاة  
قرن الله اسمه باسمك العا  
فهو عقد على صدور التحيا  
يا معيني إذا دجت ظلمة الق  
يا مجيرى إن خفت يوما عبوسا  
يا مغيثى والنار توقد بالنار  
يا دليلى على الصراط إذا ما  
بولائى أمنت من سيناتى  
فيك سر لولاه ما قسم الله  
قد هدانا بك السبيل فإما

كل رجس وطهروا تطهيرا  
لم تكن فى خلالها مذكورا  
لى، فأربى جلاله وظهورا  
ت وتاج حلى به التكبيرا  
بر وخاطبت منكرا ونكيرا  
مكفهرامستصعبا قمطيرا  
س وترمى شرارها المستطيرا  
أدهش الخوف ناظرى تحييرا  
يوم ألقى كتابى المنشورا  
على الناس جنة وسعيرا  
مؤمننا شاكرا وإما كفورا<sup>(١)</sup>

وفى قصيدة أخرى لابن النبيه فى مدح الخليفة العباسى الناصر لدين الله أيضا يقول:

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما  
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله  
وأجسر على فرص اللذات محتقرا  
فليس يخذل فى يوم الحساب فتى  
تجسد الحق فى أثناء برده  
له على ستر سر الغيب مطلع  
يقضى بتفضيله سادات عترته  
كل الصلاة خداج لا تمام لها  
كل الكلام قصير عن مناقبه  
رأيت ملكا كبيرا فوق سدته

وأنت ناه لهذا الدهر أمره  
لكنه ربما مجت أوأخره  
عظيم ذنبك إن الله غافره  
و«الناصر» بن رسول الله ناصره  
وتوجت باسمه العالى منابره  
فما موارده إلا مصادره  
لو كان «صادقه» حيا «وباقره»  
إذا تقضت ولم يذكره ذاكه  
إلا إذا نظم القرآن شاعره  
جبريل داعيه أو ميكال زائر<sup>(٢)</sup>

فابن النبيه فى هذه الأبيات يرى أن الخليفة الناصر من نسل رسول الله، وهو نفس  
الرأى الذى قاله من قبل فى قصيدته السابقة:

(١) ديوان ابن النبيه ص ٦.

(٢) نفسه ص ٧.

فهناك من جسد النبوة بضعة بالوحي جبريل لها يتردد  
فإذا كانت هذه هي نظرة ابن النبيه إلى الخليفة العباسى فلا غرو أن نراه يصف هذا  
الخليفة بالصفات التى قالها الشيعة عن أئمتهم فهو إذن الشفيع يوم القيامة ويكرر هذا  
المعنى فى قصيدة أخرى فيقول:

بولائى أمنت من سيئاتى يوم ألقى كتابى المنشورا  
بل يذهب فى الغلو إلى مدى أبعد مما ذهب إليه شعراء العصر الفاطمى إذ نسب إلى  
الخليفة العباسى معرفة الغيب<sup>(١)</sup>، وكرر هذا المعنى فذكره فى هذه القصيدة وفى القصيدة  
السابقة، فبينما طعن علماء السنة على أئمة الفاطميين بأنهم يدعون معرفة الغيب وتبرأ  
الفاطميون من هذه المقالة وممن قال بها، ترى ابن النبيه يلصقها بالخليفة العباسى،  
ويذهب ابن النبيه إلى أن أئمة الشيعة، وخاصة جعفر الصادق ومحمد الباقر بن على زين  
العابدين، لو كانوا أحياء لقدموا الناصر العباسى عليهم؛ ونلاحظ أنه خص جعفر الصادق  
والباقر دون غيرهما أولاً للضرورة الشعرية فى القافية الرائية، وثانياً لأن جل علوم الشيعة  
إنما رويت عن طريقهما. ثم يعود ابن النبيه إلى عقيدة الفاطميين التى تذهب إلى أن الصلاة  
لا تقبل مالم يصل على الأئمة. فالشاعر هنا أخذ هذه العقيدة ونظمها مستعملاً ألفاظ الفقهاء  
فزعم أن الصلاة خداج إن لم يكن بها الصلاة على الناصر، فإذا كان الشيعة يقولون ذلك  
بناء على عقائدهم فنحن لا ندرى على أى أساس قال ابن النبيه ذلك إلا إذا اعتبر الخليفة  
العباسى من أئمة الشيعة، وكرر ابن النبيه هذا المعنى فى قصائد أخرى فمن ذلك قوله:

أنت يا ابن النبى خابت صلاة لم تكن فى خلالها مذكورا  
ونحن نعلم أن الشيعة ذهبوا إلى أن فى القرآن الكريم عدداً من الآيات أنزلت فى  
أهل البيت<sup>(٢)</sup> وعدوا ذلك من فضائل أئمتهم ومن مناقبهم فهاهو ابن النبيه يمدح الناصر  
بهذا المعنى الشيعى، وختم الشاعر هذه القصيدة بأن الناصر ملك كبير وأن جبريل  
داعيته وأن ميكائيل زائرته، وهذه من المعانى الباطنية الإسماعيلية التى لم يقل بها  
سوى الإسماعيلية وذلك أن تأويل الملائكة على الدعاة والحجج، وفى ذلك يقول المؤيد  
فى الدين داعى الفاطميين:

(١) النعمان بن محمد: المجالس والسايرات ورقة ٨٩ (نسخة خطية بمكتبتى).

(٢) فى أدب مصر الفاطمية ص ٦ والمجالس المؤيدية ج ١ ص ٤٥٩ وبحار الأنوار ج ٧ ص ٢ والمجالس  
المستنصرية فى مواضع متفرقة. ديوان المؤيد فى الدين ج ٧٤ وما بعدها.

أنا آدمى فى الرواء حقيقتى ملك تبين ذاك المسترشد

فأخذ ابن النبيه هذه العقيدة الباطنية ونظمها فى شعره وجعلها فى الخليفة الناصر العباسى. من هذه الأمثلة التى أوردناها من شعر ابن النبيه، ومن أشعاره الأخرى التى يجمعها ديوانه نستطيع أن نلمس مدى تأثر هذا الشاعر بالتعاليم الشيعية عامة والفاطمية منها على وجه الخصوص.

ولم يكن ابن النبيه هو الشاعر الوحيد الذى نرى فى شعره أثر هذه التعاليم، فهنا هو زميله ابن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ يتأثر بما تأثر به ابن سناء الملك وابن الساعاتى وابن النبيه وغيرهم من شعراء ذلك العصر من تعاليم شيعية ومن تراث الفاطميين، وفى مديحه للخليفة المستنصر بالله العباسى خلع عليه صفات الإمام الفاطمى فهو يقول:

أم أى ذى لسان يقول فيفصح  
فمن العجائب أن لفظا يجنح  
أنا نقدر عنده ونسبح  
فخرا لمفتخر به يستنجد  
وبمثل ذا يتمدح المتمدح  
عن أنفس تسمو وأيد تسمح  
فلخيلهم مسرى هناك ومسرح  
والبرق منها بالسنايك يقدر  
بحبوحة الفردوس باب يفتح  
ما فاز إلا من به يتمسح  
ما زال يعبق بالنسيم ويصبح  
أرج السعادة من ثراها ينفج  
فبأى شئ بعد ذلك يمدح  
من لا يدين بحبه لا يفلح  
من آدم وهلم جرا تصلح<sup>(١)</sup>

الله أكبر أى طرف يطمح  
حرم الخلافة والإمام إمامنا  
عظم المقام عن المقال فحسبنا  
شرفا بنى العباس ما أبقيتم  
من معشر جبريل من خدامهم  
لما سموا سمحوا فحدث صادقنا  
فوق السماء خيامهم مضروبة  
حيث النجوم تعد من حصائنها  
أخليفة الله الرضى هل لى إلى  
حتى أطوف بذلك الحرم الذى  
وأجيل فى ملكوت قدسك ناظرا  
وأقبل الأرض المقدسة التى  
هذا الذى نزل الكتاب بمدحه  
هذا نذير النفخة الأخرى الذى  
إن الخلافة لم تكن إلا لكم

وابن مطروح فى هذه الأبيات التى يمدح فيها الخليفة العباسى لا يجارى شعراء العباسيين فى مدائحهم، إنما هو يجارى شعراء الشيعة فى مدح أئمتهم وينهج نهج شعراء الفاطميين

(١) ديوان ابن مطروح (طبع الجوائب ١٢٩٨ هـ).

خاصة الذين أسبغوا على الأئمة لونا من التقديس ورفعوا مرتبة الأئمة فوق السموات العلى ، وجعلوا بيد الأئمة دخول الجنة أو النار، وذهبوا إلى أن بالقرآن الكريم آيات وردت في الأئمة دون غيرهم، وأن من لا يدين بحب الإمام ويتولاه فهو بعيد عن زمرة المؤمنين وأن الإمام هو نذير النفخة الكبرى، وأن الإمامة تنقلت من آدم إلى أن استقرت في إمام العصر، فهذه كلها من المعانى الشيعية التى لم يمدح بها إلا أئمة الشيعة ولم نسمع أن شاعرا من شعراء الأمويين أو العباسيين مدح خلفاء الأمويين والعباسيين بمثل هذه المعانى إلا فى هذا العصر المتأثر بالتقاليد الشيعية الفاطمية، فإذا اغتفرنا لابن مطروح أن يصف الخليفة العباسى بمثل هذه المعانى الشيعية لأن المستنصر بالله كان إمام المسلمين وخليفة رب العالمين ويمت إلى النبى صلى الله عليه وسلم بصلة القرابة القريبة فعلا الشاعر فى مدحه غلو الشيعة فى مدح أئمتهم، فما عذر ابن مطروح فى مدائحه للملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل الأيوبي الذى لا يمتُّ إلى الخلافة بصلة ولا ينتسب إلى النبى صلوات الله عليه بسبب؟ .. ففى قول ابن مطروح فى الملك الكامل:

|                             |  |
|-----------------------------|--|
| «قدست» من ملك عظيم الشأن    | متتابع الحسنات والإحسان                |
| تتزاحم التيجان فى أبوابه    | عند السلام ولا بسو التيجان             |
| حتى إذا بصرت به أبصارهم     | خروا لهيبته إلى الأذقان                |
| أفد المواكب كالكوكب والتحرق | «بشريف ذاك العالم الروحانى»            |
| ألقى مقاليد الممالك عنوة    | لك حسن تدبير وثبت جنان                 |
| وتشوف الأملاك لاسمك كلما    | ذكروا سميك عند كل أذان                 |
| أما وقد علقت يدى «بمحمد»    | وظفرت منه «ببيعة الرضوان»              |
| أنا فيك «حسان» وأنت «محمد»  | «بمحمد» عطفأ على «حسان» <sup>(١)</sup> |

فما معنى تقديس هذا الملك؟ وما الذى صبغ عليه هذه القدسية وما الذى جعل للملك الكامل الأيوبي شرف الانتساب إلى العالم الروحانى؟ وما هذه البيعة التى وصفها بأنها «بيعة الرضوان» هذه كلها مسائل نرجعها جميعا إلى مبالغة الشاعر فى مدحه، وهى المبالغة التى ورثها شعراء عصره عن شعراء الفاطميين، وإذا كان ابن مطروح هنا قد أساء فى مبالغته لأنه مدح الملك الأيوبي بصفات دينية ليس بينه وبينها سبب لكنه سار على سنة شعراء الفاطميين، وجرى فى تيارهم متأثرا بهم ومثل هذا قوله فى مدح الملك الأشرف مظفر الدين أبى الفتح موسى:

(١) ديوان ابن مطروح ص ١٧٥ - ١٧٦ ج ١.

الأشرف الملك الكريم المجتبى موسى وتمم بالرحيم المحسن  
يا أيها الملك الذى من فاته نظر إليك فما أراه بمؤمن  
والسبعة الأفلاك ما حركاتها إلا مخافة أن تقول لها اسكنى<sup>(١)</sup>

فالشاعر هنا جعل إلى الملك الأشرف لونا من ألوان العبادة! وأن الأفلاك تسير بأمره!!  
وهى صفات خلعها عليه الشاعر مبالغة وغلوا، بينما هى صفات شيعية من صميم عقائد  
الشيعة فى الإمامة، فإذا قيلت هذه الصفات فى الملك الأشرف أو فى غيره من ملوك  
الأيوبيين أو سلاطين الماليك فهمى السخف بعينه لأنها لا تقوم على أساس مذهبى أو عقيدة  
دينية، ولكنها المبالغة والتقليد لما كان يجرى فى العصر الفاطمى فى مصر، فبالرغم من  
أن الأيوبيين فى مصر عملوا على محو التشيع ونجحوا سياسيا فى تقويض أركان دولة  
الفواطم، فإنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا من عقول المصريين هذه الآراء الشيعية أو أن يمحوها  
محوًا تاما، فقد رأينا من تلك الأمثلة التى أوردناها من الشعر كيف كان تأثير عقيدة الشيعة  
عظيما فى هؤلاء حتى خيل إلينا أننا أمام شعراء من الشيعة يمدحون أئمة الشيعة.

على أننا نستطيع أن نقول إنه بالرغم من ذلك كله فإن التشيع ضعفت فى مصر شيئا  
فشيئا، حتى كاد يمحى منها وأصبحت مصر فى القرن العاشر الهجرى وما بعده تدين  
بمذهب أهل السنة والجماعة، ولم يكن ذلك عن طريق السيف والإرهاب فحسب، بل كان  
هنالك سبب أقوى من الإرهاب والسيف وهو نشر العلم فى مصر.

انتشر المذهب الفاطمى بمصر على يد عدد من الدعاة واهتم الفاطميون بالدعاة اهتماما  
عظيما فوضعوا للدعاية أسسا وللدعاية شروطا<sup>(٢)</sup> فأنبت الدعاة بين الناس يكالبون أصحاب  
الفرق الأخرى ويحاجونهم ويبطلون آراءهم وأوهمو الناس أن الحق فيما يقوله الدعاة عن  
الأئمة، وما زالوا بالناس حتى أقبل على دعوتهم عدد كبير، اعتنقوا المذهب رغبة أو رهبة،  
فشغلت عقائد الفاطميين أذهان الناس طوال العصر الفاطمى، وجاء عصر الدولة الأيوبية،  
فأراد القائمون عليها أن يغيروا عقائد الشيعة فى مصر، ورأوا أن الفاطميين نشروا مذهبهم  
عن طريق العلم، فحاربوا التشيع بنفس السلاح الذى استخدمه الفاطميون، وهو الدعوة إلى  
أهل السنة والجماعة عن طريق فتح المدارس السننية أولا وتشجيع حركة التصوف ثانيا.

(١) ديوان ابن مطروح: ص ١٧٧.

(٢) أدب مصر الفاطمية: ص ١٩.